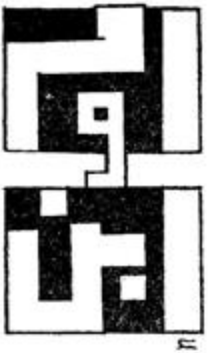

قصة من اليابان

بقلم : جوران هياو

ترجمة : خديجة برادة

استدعى المدرس المسئول عن الفصول الصغرى فى المدرسة المتوسطة المجاورة للقاعدة الامريكية فى اتوجى الى مركز الشرطة ·

ودخل الضابط القضائى الحجرة التى كان ينتظر بها المدرس وبصحبته ضابطة من البوليس النسائى ، لاحظ المدرس ان عينيها متوقدتان ·

« آسف لازعاجك » قالها الضابط القضائى ثم قدم ضابطة البوليس النسائى قائلا : « انها المسئولة عن مكتب رعاية الاحداث هنا » · ثم جلس فى المقعد المقابل لمقعد المدرس الذى كان منشغلا وقتئذ يتأمل زهور الميكانت تلهو بها الرياح ·

« ان مركز الشرطة هنا أنشىء اخيرا وليس عندنا قسم للأحداث لذلك فقد طلبت منها ان تساعدنا ·· اننا لانريد ان نزيد من خطورة الامر اكثر مما يجب ، » ·· فهون عليك » ·

وقالت الضابطة بدورها · اننا كما قال حضرة الضابط لا نريد ان نثير اشكالا حول هذا الموضوع انها مجرد مصادفة سيئة ان كان للجيش الامريكى ممتلكات فى ذلك المخبأ المهجور · ولكن الفتى اخذ كذلك كتلة خشبية من مخلفات البحرية · غير ان مجرد اشعال النار فى مخبأ مهجور لايمكن اعتباره جريمة حريق عمد ·· ان كل ما نطلبه هو تفسير ·· اى تفسير ·· لعبة تقليد أصحاب العصابات مثلا · اشعال نار معسكر أو أى شىء·· اننا نريد فقط أن نستوفى السجلات·· لكن الفتى لايريد ان يتكلم وقد اوقعنا ذلك فى حيرة ·

وقال الضابط ·· اننا لانريد ان نحتجزه هنا أكثر من ذلك لكننا أيضا لا نستطيع أن نفرج عنه لاننا لم نتمكن من استيفاء الأوراق وقد استدعيناك لانك مدرس الفصل ويمكنك ان تقول لنا شيئا عما تعلمه عن شخصيته وحياته العائلية الى آخره ·· فنتمكن بذلك من كتابة تقرير على اساس ماتدلى به انت من معلومات ·

وانحنى المدرس فى ادب وقال : «لابد لى ان أشكركم لما تكبدتم من مشاق فى سبيل الغلام » ·

وفتحت الضابطة ملفا وقالت :«اسمح

لى اذن ان نبدأ ـ تاروا يزومى ستة عشر عاما وشهرين . ولد فى سابان . فصل «ب» فى السنة الاولى من القسم المتوسط بمدرسة سانت جوزيف . . حاصل على منحة ادامز . والده اخصائى فى الارصاد الجوية وكان يعمل فى المكتب الادارى اليابانى فى سابان مات فى عام ١٩٤٠ .. الام تعمل فى شركة « نانيو كوهاتسو » والمرجح انها ماتت اثناء الغزو الامريكى للجزيرة ـ اما عن الولد نفسه فكيف تعلل بقاءه فى السنة الاولى ؟ لاشك انه متأخر فى الدراسة بالنسبة لسنه » .

واجاب المدرس بتحفظ « لقد أخذ الولد مع مجموعة من يتامى الحرب الى هاواى فى السنة الأخيرة منها . وقد اهتم بهم بعض الافراد فبعثوا بتارو ايزومى الى مدرسة فى مستوى مدارسنا الابتدائية وقد مكث هناك طيلة ست سنوات ثم أعيد الى اليابان والحق بمدرسة سانت جوزيف وكان المفروض أن ينضم الى الفصل الثالث لكن معلوماته فى اللغة اليابانية مازالت ضعيفة » .

« وما هى منحة ادامز ؟ »

« انها فى الحقيقة ليست منحة ولكننا نسميها كذلك . فقد كان ادامز ضابطا من مخابرات النازى وكان مسئولا عن يتامى الحرب فى سابان . وقد اختار خمسة صبية ليتعلموا على نفقته الخاصة بشرط أن يدرسوا اللاهوت وفى مدرستنا منهم ثلاثة » .

« لقد مات والده وهو فى الرابعة ومن ثم فهو لايكاد يذكره . ولكن ماذا عن امه ؟ الا تستطيع ان تذكر لنا شيئا عنها ؟ » .

« لقد كانت مثقفة تخرجت فى جامعة طوكيو النسائية » ثم اصبحت مسئولةعن العاملات المشتغلات بالنوادى والمحال التى كانت تديرها الشركة . ثم التحقت فيها بعد بالجيش واصبحت المديرة المسئولة عن احد مراكز الترفيه عن الضباط المسمى « ذى واترى مون » لقد كان جميلةجدا مما جعلها غيرمحبوبة من النساء .

وقالت ضابطة البوليس النسائى فى استنكار « ذى واترى مون ؟! » هل كان الفتى يمضى وقتا طويلا هناك ؟ » .

لا .. فانها كما سبق ان ذكرت كانت فائقة الحسن لديها الكثير مما يشغلها ومن ثم فهى لم تكن لتستطيع ان ترعاه فعهدت به الى احد رهبان « كاناكا » كان يقيم فى الجزيرة منذ ان كانت تحت حكم الالمان .

« فالولد اذن لم يقع تحت أى مؤثر ضار ؟ » .

« نعم .. فانه يجهل حتى تلك الاشياء التى يعرفها كل ولد فى سنه . فهو مثلا لم ير فيلما سينمائيا قط وهو يجيد الكتابة ولكنه كان يحيا حياة متزمتة بدرجة غير عادية وكان ذلك كثيرا ما يقلقنى عليه » .

ونظرت الضابطة الى اوراقها وقالت:

« ارى انه منح مائة درجة فى السلوك ولكنى اشك فى انك تعلم اننا بالاضافة الى هذه الحادثة قد تلقينا تقريراتأخرى عن الغلام وهى لاتؤيد كمال سلوكه ففى ليلة ٣ مايو مثلا ارتدى الفتى ملابس فتاة «فستانا» بحريا وخمارا أحمر . وكان يبيع الورد فى « الجنزا » وقد امسكت به احدى زميلاتى وحذرته . ثم

وقف فى نفس هذا الحى ومعه سيارة أجرة امام المعسكر فى انتظار الجنود الذاهبين الى كوريا ليقلهم الى طوكيو . وكان يبدو كما لو كان قوادا . وبعد ذلك وجد مخمورا يترنح من شدة السكر ـ وهاك تقرير آخر .. وجد متجولا فى محطة اريا على شريط ساجامى فى الساعة السادسة من صباح يوم ٨ اكتوبر وانقذ فى الوقت المناسب من الموت تحت عجلات قطار الصباح .

ذكرت هذه الوقائع المشينة فتبعها سكون لا يقطعه الا عصف الرياح فى العشب الجاف واخيرا حاولت الضابطة أن تسرى عن المدرس فقالت : « لقد عرفت الفتى لمدة طويلة وانا واثقة أن وصفك له صحيح الا أنه يبدو أن اخلاقه قد تغيرت اخيرا .. انه يلبس ملابس فتاة او ان يسكر أو يقلد القوادين . أو يلعب بالنار فى مكان ممنوع فيه اشعال اى لهب . الحوادث تختلف ولكن اساس كل هذه التصرفات كما يبدو لى واحد . هو التمرد على أى نوع من الحكم او القانون . لعل عقله مريض أو لعل احدى ذكرياته المفزعة تدفعه دون وعى أن يتصرف على هذا النحو . فهل تستطيع أن تذكر لنا شيئا ينير لنا الطريق فى هذا المجال ؟» .

وطاطا المدرس راسه فى حزن وقال « لست متاكدا ان كان ما سأقوله يفيد التحقيق ولكن الفتى قد مر بتجربة مريرة . فقد حاولت امه ان تقتله اذ وجد مخنوقا بحبل وملقيا تحت شجرة كبيرة على هضبة شيميكاتا . وكان الحبل ملفوفا حول عنقه ثلاث مرات وقد عقد عقدة لا يمكن حلها . كما كان الحبل مغطى بالصابون ليسهل انزلاقه. وذلك يشير الى ان الامر كله كان عن عمد وسبق اصرار . لقد غضبت انا وادامز لذلك أشد الغضب مع اننا بالطبع كنا نعلم الدافع الحقيقى . وقد امضينا فترة طويلة فى محاولة اعادته الى الحياة بالتنفس الصناعى ولم نكن متاكدين انه سيعيش حين نقلناه فى سيارة « جيب » الى مستشفى الميدان . ولعلك تعلم ان ثلاثين الفا من اليابانين المدنيين انتحروا فى ذلك الوقت لاعتقادهم انهم سيقتلون على يد الامريكيين على أية حال .

كان الاباء والابناء يتقاذفون القنابل اليدوية وألقى البعض بأنفسهم الى البحر وقد تشابكت ايديهم ولكن كل هذه الجثث عثر عليها متجاورة ولست اعرف حالة أخرى وجدت فيها جثة لطفل وحدها » .

قال الضابط :ليقطع الصمت الذى ساد حين لم ترد الضابطة ان تقطعه من جانبها « انها لقصة رهيبة ان مثل هذه الحادثة قد تؤثر على نفسية الطفل طوال حياته » .

وتململ المدرس فى مقعده وقال : « والآن هل أستطيع أن أرى الفتى ؟ فانى أود ان أوجه اليه بعض الأسئلة » .

واشارت الضابطة الى باب الى اليسار وقالت « طبعا تفضل من هنا » .

جلس تارو على الارض فى الحجرة الصغيرة المظلمة المخصصة للاولاد الموضوعين تحت المراقبة وحين نظر الى السماء من خلال الشباك . ذكره ذلك بباب لقفص طيور واستعاد ايامه الاخيرة فى سابان .

فالضوء الخافت والرائحة الرطبة ولون

السماء يقتطع منه الشباك مربعا صغيرا والسكون الثقيل المطبق وجسمه المكدود . كل ذلك ذكره بالكهف فى سابان. وسقف الكهف مغطى بالحشائش الرطبة تنمو فيه بعض الازهار الصغيرة وعلى السطح يقع بيضاء من روث الطيور .

كانت فتحة الكهف الى الغرب فكان مظلما رطبا اغلب النهار ولكن حين يأتى السماء تضىء الكهف شمس الغروب وتظهر وجوه الرجال والنساء المختبئين فى ثناياه وكانت هناك فتاة مراهقة نحيلة بارزة العظام تلتقط حبات من الارز المبعثر بين الصخور تمسح الطين بعناية عن كل حبة وتأكلها الواحدة تلو الاخرى وخلفها جندى يدير نظراته فى خيل ويسد رمقه بالحشائش يمضغها فى نهم فيسيل عصيرها الاخضر من جوانب فمه . ولكن هذه المناظر كانت سرعان ما يلفها الظلام فتختفى وهكذا يمر يوم آخر .

وقال تارو : « لقد حان وقت احضار الماء » .

لقد كان ينتظر هذه اللحظة منذ ان دخل الكهف مع امه. كان يجد لذة كبرى فى ان يكون بجوارها طوال اليوم . وان يخدمها . كان يتطلع الى وجه امه الجميل فى انتظار ان تأمره ـ ان تعطى الاشارة فى أى وقت .

ثم سمع أمه تقول له : « تارو اذهب واحضر لى ماء » فاهتز فرحا لسماع الصوت الحبيب .

انه ليفعل أى شىء من أجل امه ... كان النبع على بعد مائة قدم من سطح الهضبة الشديدة الانحدار وكان مجرد النزول بزجاجة فارغة يسبب الدوار أما ان كان جنود الاعداء على القمة فانهم يطلقون النار فورا على أى جسم متحرك. ولكن تارو مع ذلك لم يكن ليخشى أى شىء انه لا يحس بالخطر .

لقد كان تارو يحس بالرضى العميق يغمره وهو يقدم زجاجة الماء الى أمه . فينسى الجهد والمخاطر التى واجهها حتى استطاع أن يملأها .

ثم فكر، ترى كم كان عمرى حينئذ؟»

وذات صباح تطلع الفتى الى أمه فبدت له أجمل شىء فى الوجود .. ومنذ تلك اللحظة أصبح عبدا لها .. وكان أمله الوحيد أن يستأثر بحب أمه كله . وألا يغضبها أبدا لقد كان يمضى وقته يتطلع الى أمه بشغف ليرى التعبيرات المختلفة التى تظهر على وجهها وبدأ تارو يستعيد هذه الكلمات لنفسه وهو يحك رأسه فى حائط زنزانته الخشبى .

« أيها المسافر اذهب الى لاسيديرم وقل اطاعة لأوامر الملك نرقد نحن هنا» فعندما اقتربت النهاية كانت أمه قد علمته هذه الأبيات كررتها عليه سطرا سطرا حتى جعلته يحفظها .

« لاسيديرم هى اسبارتا . منذ ألفى سنة قاومت شرذمة من جنود اسبرطة الجيش الفارسى كله فى مكان يسمى « ثرموبيلى » حتى استشهدوا جميعا فى المعركة ويقال ان نصبا يحمل تلك العبارة قد أقيم فى مكان المعركة القديم « لقد كانوا شجعانا أولئك الجنود. أليس كذلك ؟ يجب ألا تنساهم»

كانت أمه تحاول أن تجعل من لحظاتها الأخيرة معه حلما لطيفا من التاريخ ·

وهمس تارو « لقد جاء دورنا أخيرا » وتخيل نفسه لحظة الموت · كان الآباء والأبناء يمسكون بأيديهم ويلقون بأنفسهم من على الربوة أو يربطون أنفسهم معا بحبل ثم يدخلون الى البحر من الشاطىء وكانت جماعات صغيرة تموت هكذا كل يوم أمام عينيه · وفكر تارو فى أن يدخل الماء وهو ممسك بيد أمه دون أن يخالجه أى حزن ·

كانت شمس الأصيل تصبغ السماء بلون قرمزى وكان الجو ساكنا جميلا حين أخذت أمه الحبل وطلبت منه أن يصحبها الى خارج الكهف وقالت « انك لن تستسيغ أن أفعل بك ذلك أمام الناس ولذلك فسوف أقوم به فى الخارج ·

حتى هذه اللحظة لم يكن «تارو» قد فكر فى الموت وحده ولكن حين علم انها تنوى شنقه استسلم وتبعها الى الربوة متظاهرا بالسرور والسعادة حتى يمنحها هى السعادة ·

وجاءت الضابطة وأخرجت تارو من الحجرة المخصصة للمراقبين « وفى الحجرة الأخرى وعلى مصطبة مغطاة بالسجاد فى آخرها جلس المدرس الذى يعرفه تارو وأصدقاؤه باسم سانت جون : كان سان جون من جزيرة أوكيناوا وكان مشرفا على مزارع قصب السكر فى سابان · وما أن وقع نظر المدرس عليه حتى بدأ فى القاء مواعظه بطريقته المعروفة المتعبة · وبينما تارو يستمع اليه مطأطىء الرأس استقرت نظراته الزائغة على مسدس يتدلى من حزام شرطى كان يكتب على مكتب بجوار الحائط ·

وفكر تارو ان هذا المسدس من نفس النوع ففى الكهف كان ملازم بحرى صغير يسمح لتارو بحمل مسدسه ·

قال المدرس « لقد ارتديت ملابس الفتيات وكنت تبيع الورد فى حى الجنزا وتعجب تارو أنه لم يفعل ذلك سوى مرة واحدة فمن يا ترى أخبر سانت جون بذلك ؟ أتكون الضابطة التى أمسكت به ؟ أم انه يانكو من السنة الثانية فصل (أ) الذى أعاره الملابس ؟ ·

ثم أكمل سانت جون حديثه « يبدو انك لا تستسيغ فكرة التعليم على نفقة الغير · ولذلك فقد فكرت فى ان تلبس ملابس الفتيات وتبيع الورد ؟

وهمس تارو لنفسه قائلا « هذا خطأ لقد كان فعلا يرتدى ملابس بائعة ورد لكن لم يكن يبيع الورد ، الحمد لله ان سانت جون لم يعرف شيئا » ·

كان تارو قد سمع فى هنولولو ان أمه تدير بارا (حانه) فى الجنزا · لذلك بحث فى الليلة الاولى لوصوله الى طوكيو عن هذا البار حتى وجده · ولكن لم يكن مسموحا بالدخول فيه الا لبائعات الورد أو عازفى الآلات الموسيقية وكل الناس يعرفون ذلك · وهكذا فى مساء أحد أيام الأحد ارتدى تارو الملابس التى استعارها ودخل البار فى هذه الليلة ما بين الساعة الثامنة والعاشرة خمس مرات لم يكن هناك رواد كثيرون وكانت أمه منحرفة المزاج ·

ونهرته بغضب ـ « انت لحوح حقا » أليس كذلك ؟ كم مرة جئت هنا ،

لا يوجد هنا من يهتم بالزهور ، وفى احدى هذه المرات أمسكت احدى خادمات الحانة بباقة فستانه البحرى وطردته الى الخارج ولكنه مع ذلك دخل ثانية .

قطع سانت جون أفكار تارو مرة أخرى وقال : ـ كنت تأخذ القادمين من كوريا الى طوكيو يوم السبت من كل أسبوع بسيارة أجره . لا شك ان ذلك كان يتأتيك بربح وفير ولكنه شىء محزن حقا أن تستعمل معلوماتك فى اللغة الانجليزية فى هذا الغرض الحقير » .

وقال تارو لنفسه « انك لم تفهمنى كذلك هذه المرة انى لم أكن أحاول أن اربح مالا لنفسى أن بار واندتى كان قليل الرواد وأردت أن أحضر لها بعض الزبائن لتتحسن الأمور .

لقد كان تارو يحاول أن يساعد أمه دون أن تعلم ولكنه كان يرتكب بذلك غلطة كبيرة .

ففى السبت الأول من شهر أكتوبر ذهب تارو الى حانة مجاورة لمعسكر فنكهام كانت ملتقى سائقى سيارات الأجرة ، ذهب ليبحث عن سيارة اذ قال له سائق « صديق » ان صاحبة البار الذى تتكلم عنه هى أمك اليس كذلك ؟ انك لولد بار جدا ولكن أتعلم أيها الفتى الصغير ماذا تعمل أمك مع الرجال الذين تحضرهم انت لها ؟ وبقى تارو صامتا .

ان كنت لاتعلم فسوف أريك .

ثم استدعى سائقا آخر وأطلع تارو على الحقيقة المرة .

وفى تلك الليلة عاد تارو متأخرا الى عنبر النوم فى المدرسة وارتمى على فراشه تخنقه العبرات ويعتصره الأسى . ان أمه لم تعد هى أمه . لقد أصبحت امرأة مجرد امرأة وفجأه عاد تارو الى رشده . انه لا يريد أن يبقى فى هذه الدنيا أكثر من ذلك ، لا بد أن يموت فى تلك الليلة .

وأخرج تارو صور أمه وخطاباتها القديمة ومزقها اربا اربا ثم ألقى بها فى بالوعة المطبخ وتلفت حوله فى الحجرة وتساءل : أليس عليه أن يفعل شيئا قبل أن يمضى ؟ لا لم يعد بعد من شىء .

ثم قال تارو لنفسه « وماذا يهم ان كان يوجد شىء اذا لم يكن لى غد » لم يبق له ما يفعله سوى أن ينام قليلا قبل أن يمر الصباح ... وأزعجه خاطر قصر الحياة فبكى .

وأردف سانت جون قائلا ...

وتماديت طبعا فى طريق الشر . ويظهر انك مشيت وانت سكران على شريط سكة حديد ساجامى وكدت أن تقتل .. لم أكن أتصور أن تتخدر لدرجة السكر » .

وفكر تارو ثانية .. « صحيح وخطا انا لم أشرب خمرا قط ولكن من الجائز انى كنت مخمورا لقد كنا قرب الفجر . وقد أضيئت الأنوار الكهربائية على الرصيف الموصل لباب المحطة . وكان ذلك يعنى أن قطار الصباح على وشك المرور فى أى لحظة وخلعت معطفى وألقيته على العشب واستلقيت ممدد الجسم وسط القضبان انتظار أن يدهمنى القطار ولكن القطار لم يمسنى وسمعت

عامل « الدريسة » الذى انقذنى يقـول لناظر المحطة « لو كان مرتديا معطفه لتعلق بشـبكة القطار وكان القطـار قد دهمه . لكنـه كان بدون معطف . مرتديا قميصه فقط وقد انقذه ذلك » .

ولكن تارو كان مازال مصـمما على الموت ففى احدى ليـالى الخريف سرق بعض الكيروسين من المطبخ وخرج الى الحقـوق خلف عنـابر النوم ودلف الى المخبأ المهجور وصب الكيروسين على نفسه

وحاول عدة مرات قبل أن يفلح فى اشعال عود ثقاب فى اكمامه ولكنه كان لهبا ضعيفا . فلم يكن للكيروسين الجديد نفس قابلية الكيروسين القديم للاشتعال ، لذلك فسرعان ما اطفأتها الرياح لكنه استمر فى محاولات يائسة لاشعال النار فى أجزاء مختلفة من ملابسه لكنها كانت تدخن ولا تشتعل وأخيرا حين جاءوا يستطلعون الأمر وجدوه مغشيا عليه يكاد يخنقه الدخان .. لماذا اشتعلت النار فى المعدات الحربية لأمريكا ؟ . ان رجال الشرطة يقولون انهم سوف يطلقون سراحك اذا قلت لهم الحقيقة والا فانك ستعاقب .

لم يكن يعلم تارو وجود تلك المعدات ثم انه فشل حتى فى اشعال النار فى نفسه « فجأه صرخ تارو « اقتلونى — اقتلونى .. » .

فصرخ فيه سانت جون «اسكت» . « اسكت »

ثم وقف وغادر الحجرة فى عجلة كما لو كان قد تيقن من جنون تارو .

ودخل الحجرة ضابط بوليس شاب خلع حزامه وبه المسدس فى قرابه والقى بها على المصطبة . ثم استلقى بجوارها وأغمض عينيه . وتفحص تارو السلاح بهدوء — أما الضابط الآخر فانه كان يواصل الكتابة مديرا ظهره الى تارو .

« انى أستطيع الآن أن أفعل ماأريد » وتحرك بحذر الى حزام الرجل النائم وأخرج المسدس من قرابه بسرعة وارجع ضابط الأمان . ثم وقف وضغط على الزناد ... وتطاير الطلاء من الحائط المقابل وصرخ الضابط الشاب وتدحرج من المصطبة الى الأرض .

وتكوم الى جانب المكتب — أما الشرطى الآخر فقد ارتمى خلف المكتب وأخرج مسدسه وأطلق النار على الفتى حامل السلاح المنطلق .

وأحس تارو كما لو كان قد ضرب بقضيب من الحديد فى صدره . فاستند الى الحائط خلفه وأطلق أنة طويلة وفجأة امتلأت عيناه بالدموع وسقط على وجهه .